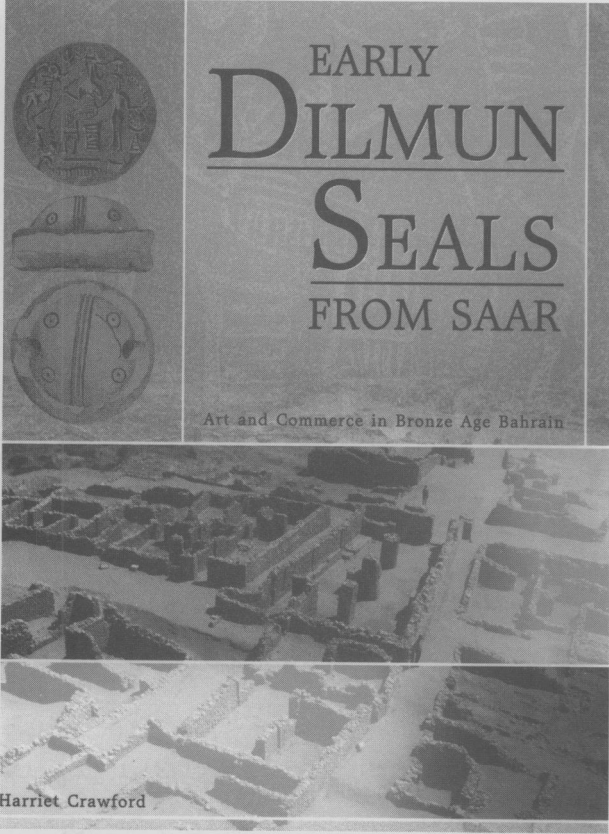


عرض الكتب



اسم الكتاب : أختام دلمون المبكرة من سار.

المؤلف : د. هاريت كروفورد.

سنة النشر : ٢٠٠١ م.

الناشر : (ARCHAEOLOGY)

(INTERNATIONAL)

رقم التصنيف الدولي: ISBN 0-9539561-0-5

مقاس الكتاب : ٢٢,٥ × ٢٨,٥ سم.

عدد الصفحات: ١١١ صفحة.

عرض: خالد محمد السندي

كان - وما زال - غياب الكتابات وندرتها، يطرح تساؤلاً أمام الباحثين في آثار العصور البرونزية لحضارات الساحل الشرقي للجزيرة العربية وجزرها، حيث نشأت حضارة دلمون؛ لذا، احتلت الدراسات المتعلقة بالأختام الدلمونية درجة من الأهمية لدى الدارسين لهذه الحضارة، لما تحتويه هذه الأختام من نقوش ورسومات، يعكف المتخصصون على تحليل موضوعاتها ورموزها. وتعد جزيرتا البحرين، وفيلكا بدولة الكويت، مركزين مهمين لإنتاج هذا النوع من الأختام، نظراً لنصيبهما الوافر منها.

وقد استعملت الأختام على اختلاف أشكالها في العصور القديمة، من منطلق أهمية التعرف على الممتلكات الشخصية. وكان أول من أستخدم الأختام في عملية التوثيق، هم سكان بلاد ما بين النهرين حيث عُثِر في المواقع الأثرية العراقية على الآلاف من الأختام وطبعاتها، مما يساعد على التعرف على تطور هذه الأختام، عبر العصور التاريخية.

وتصنع الأختام، عادة من الحجر الصّابوني، أو الخزف، أو من الأحجار الكريمة، كالعقيق والكريستال والهيمايت، ومن الأصناف أحياناً، ومن الأحجار الصلبة، أحياناً أخرى. وكان الختم يحاط - عادة - بإطار معدني، ويعلق على صدر صاحبه، أو يتدلى من حزامه.

ويتحدث جيفري بيبي، في كتابه (البحث عن دلمون)، عن لحظة اكتشاف البعثة الدانماركية لأول ختم دلموني، في آثار موقع قلعة البحرين، فيقول: "لقد قدم إليّ ومد يده المنقبضة ثم فتحها، ليرني شيئاً مستديراً من الحجر، يبلغ نصف قطعة

النقود من فئة الخمسة شلنات. لقد كان ختماً للمهر؛ وبينما كنت أنظفه من الرمل، وبدأت في تبين معالمه، علمت أنه سيكون اكتشاف العام، لأنه كان ختماً مخصصاً للغاية، وكنا نعرف ما وجه الخصوصية فيه". ويتابع بيبي الوصف فيقول: "لقد كان الختم، كما قلت، ختماً مستديراً للمهر، وبلغ قطره بوصة تقريباً، مسطحاً في أحد جانبيه، وقد نُحِت في أحد وجهيه شكلان تمكّنت، حالاً، من تبين ملامح كائنين بشريين فيهما، بينما تمثل الجانب الآخر في حدة مستوية يخترقها ثقب، وذلك ليتمكن حملها في خيط. وزُخرفت الحدة بثلاثة خطوط محزوزة، وبأربع دوائر محزوزة أيضاً. وفي وسط كل واحدة منها نقطة. وكانت المادة نوعاً من الحجر الصابوني (Steatite) ناعم الملمس.

ولا يرتبط الختم بالكتابة، وإنما ظهر قبل اختراعها، وكان وسيلة للتعبير عن ملكية الأشخاص في ممتلكاتهم؛ ولكن شاع استعمال الختم بشيوع الكتابة في مرحلة جمدة نصر، حيث كانت السجلات تحمل طبقات الأختام. وقد أدى الختم وظيفته

الأهمية المزدوجة لمكانة دلمون الأسطورية والاقتصادية. ومع تقدم العمل الأثري، بدأت دلمون الحقيقية للظهور من ضباب الأسطورة. وأصبح بمقدورها إتخاذ مكانتها، كأحد المحطات التجارية الحيوية ضمن مسارات شبكة التجارة، في الشرق الأدنى القديم، في تلك الفترة. وتبين النصوص، ومعها علم الآثار، تركز دلمون على جزيرة البحرين.

وعلى الرغم مما تؤكدته الاكتشافات المتواصلة، بأن دلمون كانت بلداً تجارية مهمة، إلا أن تفاصيل التركيبة الاقتصادية والاجتماعية المحلية، والحياة الفعلية للمجتمع، يشوبها الكثير من الغموض. ويأتي تأسيس البعثة محاولة للوقوف على تلك التفاصيل.

تتطرق الباحثة في المقدمة الى النتائج، التي توصلت إليها البعثة، من اكتشافات مهمة تتمثل في قرية صغيرة بنيت بشكل منظم. وتبدأ برسم التفاصيل المعمارية للوحدات السكنية، والمعبد المكتشف، وتختتم المقدمة بتصور للباحثة أن الموقع قد هُجر لفترة زمنية، ولم يترك به من الحاجيات سوى القليل.

وفي العنوان الثاني، تتناول الباحثة دراسة الأختام وطبعاتها، في إطار منهج التحليل، الذي يعتمد على تحليل الأسلوب المتبع في صناعة الختم. وهي الطريقة، التي ترى الباحثة أنها المثلى، في دراسة مثل هذه الأختام. وهي، في الحقيقة، دراسة تعتمد على المادة والشكل والنحت والتركيب، إلى جانب ما يفيد به هذا النوع من التحليل، لمعرفة تركيبة المجتمع ومعتقداته. كما تؤكد الباحثة على أهمية الإدراك لدور التحليل، لمعرفة المعاملات والتعرف، أيضاً، على الممارسات الإدارية القديمة، والطرق المستخدمة لمراقبة وتوزيع البضائع. وترى الباحثة أن الدراسة المكانية لتوزيع الأختام، تضيف بعداً آخر للصورة، لأنها تمكن من التعرض إلى مدى انتشار الأختام، وعلاقة الناس الذين استخدموها.

ومن هذه الزوايا كانت دراسة مجموعة أختام موقع سار، معينة على رسم صورة للاقتصاد الداخلي لدلمون، خلال الألفية الثانية قبل الميلاد.

وفي الجزء الثالث تتعرض الباحثة لمميزات الأختام الدلمونية، وتصنيفها الحالي، حيث أعتمدت - بشكل كبير - على المنهج، الذي وضعه الباحث بول كيروم (وهو باحث دانماركي متخصص في دراسة الأختام الدلمونية). وقد درس خمسمائة ختم تقريباً، عثر عليها في جزيرة فيلكا، ومجموعة أخرى من موقع قلعة البحرين، ومعبد باربار. ويمكن تلخيص

الدينية، أو الطقوسية، إلى كونه رمز ملكية صاحبه؛ فهو بمثابة التسمية، أو الدلالة، تُعلق في الرقبة. وتتكشف الوظيفة الدينية والطقوسية من تلك الأشكال، ذات العلاقة بالأفكار والمعتقدات الدينية.

لم ترد أية إشارة إلى موضوع الأختام الدلمونية قبل عام ١٩٥٤، وهو العام الذي باشرت فيه البعثة الدانماركية موسمها الأول في التنقيب، عن الآثار في الخليج العربي؛ ولكن قبل ذلك، وفي عام ١٩٣٢، نشر الأستاذ سي. جي. جاد (C. J. Gadd) مقالاً كتبه في محضر جلسات الأكاديمية البريطانية (Proceedings of the British Academy)، حول دراسة أجراها لمجموعة قليلة من الأختام الدائرية الصغيرة، التي كانت ضمن مجموعة آثار أخذت إلى بريطانيا، من قبل السير ليونارد وولي، من حضرياته في موقع أور. وقد جعل جاد عنوان مقالته تلك (أختام من نمط هندي قديم وجدت في أور). ولكن مع تنامي نشاطات الحفر والتنقيب عن الآثار، خاصة في البحرين وجزيرة فيلكا، بدأت دائرة المعلومات تتسع حول هذا النوع من اللقى الأثرية. وتعد قلعة البحرين، ومعبد باربار، أهم المواقع التي عُثر فيها على هذا النوع من الأختام، إضافة إلى القبور التلية، حيث عُثر على الأختام مرافقة لبعض هياكل الموتى، معلقة على الصدر، قريباً من رقبة الميت.

ويتناول الكتاب، الذي نحن بصدد عرضه، دراسة متخصصة لمجموعة من الأختام وطبعاتها، عُثر عليها في موقع واحد. وتُعد هذه الدراسة آخر الإصدارات، التي نشرتها البعثة. وقد سبق للمؤلفة أن شغلت منصب مديرة لبعثة لندن - البحرين المشتركة، التي تأسست في عام ١٩٨٩، وبدأت أعمالها سنة ١٩٩٠، وأستمرت عشرة أعوام بموقع سار الأثري، في الشمال الغربي من جزيرة البحرين. وتشير نتائج التنقيب إلى وجود أربعة مستويات أثرية رئيسية في هذا الموقع، ولعل أهمها المستوى الثاني، الذي بنى من خلاله المعبد والمستوطنة في الفترة الأخيرة من الألف الثالثة قبل الميلاد.

يتكون الكتاب من ثمانية عناوين، ويبدأ بالمقدمة، التي تتناول التغير، الذي طرأ على ميدان التنقيب عن الآثار بمنطقة الخليج العربي، خلال العشرين سنة الماضية، نتيجة الاهتمام المكثف، وما أظهرته البحوث والمعلومات الحديثة لهذه المنطقة. ويؤكد الآثاريون على وجود إحدى القوى الرئيسية في الخليج، في أواخر الألفية الثالثة وبداية الألفية الثانية، التي كانت تقرر في الكتابات المسماة بأرض دلمون. وتبين النصوص المسماة

أسلوب صناعة الختم، التي أعتم عليها كيروم، ترجع إلى اختلافات زمنية فقط، دون الأخذ بعين الاعتبار التقسيمات الإقليمية، وإنتاج الورش المختلفة.

وفي القسم الرابع، تتناول المؤلفة موضوع التحليل المعتمد على دراسة الأسلوب، في الأختام الدلونية وطبعتها. وهي الطريقة المعتمدة، التي أجرتها لعدد ٩٥ ختماً، وما يزيد عن ٢٢٠ طبعة ختم، أُكتشفت بموقع سار. وتعد هذه المجموعة من أفضل المجموعات تنوعاً في منطقة الخليج العربي، خلال الألفية الثانية. والدراسة هنا محصورة في شكل الختم وحجمه ومادته، ومقارنة الأختام بعضها ببعض.

وأختام سار جميعها مصنوعة من مادة الحجر الصابوني، عدا بعض الأمثلة المصنوعة من الطين الأحمر والعاج والصدف، وجميعها دائرية عدا ختمين مربعين، وواحد فقط أسطواني الشكل، نفّذت رسومه بأسلوب دلوني. وتتنوع موضوعات أختام سار، فمنها ما يمثل مشاهد توضح مجالس الشراب، وموضوعات الخصوبة، ومناظر الصيد. ويعد الغزال أحد أبرز الحيوانات وجوداً في مشاهد هذه الأختام. وعلى الرغم مما تتميز به الأختام الدلونية، من خصوصية في أسلوبها وشكلها العام، إلا أن هناك مؤشرات ودلالات واضحة لوجود تلك التأثيرات المباشرة، وغير المباشرة، في كل من حضارات سوريا وعليلام والأناضول، وبشكل أكثر وضوحاً في حضارتي بلاد ما بين النهرين ووادي السند.

أما القسم الخامس، فيتعلق بالجانب الوظيفي للأختام وطبعتها. وتعتقد المؤلفة أن الأختام لعبت أكثر من دور؛ فهي لها خصوصية المالك، من الناحية التجارية؛ وهي كذلك، بمثابة المهر لتوثيق المعاملات. كما لعب الختم دور التعويذه أو التمييمه، وهذا ما تؤكد الأختام الخليجية (كما ترى المؤلفة)، التي لم يوجد لها أثر على أي طبعة طينية.

ومن المؤكد أنه لم يُعثر على أي رقيم طيني، عليه طبعة لختم، سواء في البحرين أو في فيلكا، ألا أنه عُثر خارج دلمون على رقيمين طينيين، مختمين بختمين دلمونيين. أحد هذين الرقيمين عثر عليه بموقع سوسة، وله علاقة بتجارة النحاس. وتؤكد مجموعة الكتل الطينية الصغيرة، التي عُثر عليها بموقع سار، الدور الاقتصادي للختم، كونه يحدد شخصية المالك. فقد استخدم بشكل ملحوظ لدمغ البضائع، بمختلف أشكالها المادية، وذلك بعد إيداعها داخل حاوياتها. وما زالت الطبقات الطينية للأختام تحمل من الداخل آثار الحبل، الذي أوثقت به

التصنيف الذي وضعه كيروم على النحو الآتي:

أ- أختام خليجية،

يصفها بأنها صغيرة الحجم، نادراً ما يكون قطرها أكبر من ٢٥ سنتيمتراً، وغالباً ما تشتمل على رمزين متقابلين بزوايا قائمة. وعلى ما يبدو، كانت صور الحيوانات هي الشائعة، في مشاهد هذه المجموعة. أما الظهر فهو محدب يشبه القبة، ويزخرف بخط واحد، أو خطين في المنتصف. وتقع الأختام، التي تحمل علامات سندية، ضمن هذه الفئة.

ب- الأختام الانتقالية؛

وهي أكبر حجماً، ومسطحة أكثر من النوع السابق، ولا يتجاوز قطرها ثلاث سنتيمترات. والصفة المميزة لهذه المجموعة هي أن رؤوس الحيوانات مرسومة بدلاً من حفرها بالمشقاب. كما أن الظهر به خط أو أكثر، مع وجود دوائر مركزية.

ج- أختام فئة أ؛

وهي تمثل الغالبية العظمى من الأختام، وكلها، تقريباً، مصنوعة من الحجر الصابوني، عدا بعض الأشكال ذات الخلفيات الهرمية. أما الحواف فهي مقعرة، وتُعد صورة الإنسان هي الأكثر شيوعاً، في هذه المجموعة. وهي توضح جذع الإنسان من الأمام، حتى لو كان الرسم جانبياً. وهناك تطور كبير في تفاصيل حفر العناصر المرسومة، على سطح الختم، وربما أستخدم مثقاب مزدوج لتنفيذ النقوش، في هذا النموذج.

د- أختام فئة ب؛

هناك تشابه بين ب ١ و أ ١، من حيث الشكل والمواد والأدوات ومحتوى التصميم؛ غير أن هناك علامات مميزة، مثل تلك المحاولات غير المتقنة لرسم صورة جانبية لحيوانات أصغر حجماً، من تلك الموجودة في النوع السابق.

هـ- أختام النوع رقم ٢؛

يتميز هذا النوع بالخطوط شبه الدائرية في المقطع الجانبي، كما أستخدم مثقاب دقيق لتنفيذ نقوش هذه المجموعة. وتشير الباحثة إلى أن ما يتوافر لدينا من دليل طبقي محدود، يجعل من الصعوبة بمكان أن نحدد بشكل قاطع

من موقع سار، بعض الاحتمالات لاستخدام الختم؛ فمن المحتمل أن الختم قد قام بدور التعويذة للأطفال، وذلك للحماية ودراً الأذى عنهم (حسب اعتقادهم)، في حين أن دورها يختلف للبالغين. أما لفئة التجار في المجتمع، فإن استخدام الختم كان بمثابة تحديد الملكية لصاحبها، وهذا ما تؤكده طبعات الأختام، التي وجدت بوفرة في المعبد والمساكن. وهذا يعني وجود شريحة كبيرة من مجتمع سار، التي تعاملت في المجالات التجارية المختلفة. كما أنه من غير المستبعد أن يكون للمرأة دور في هذا النشاط.

وتضيف الباحثة، على ضوء دراستها لهذه المجموعة من الأختام، أن مستوطنة سار مثلت نوعاً من السلطة المركزية على الجزيرة، إلا أنها، بالضرورة، كانت جزءاً من المنظومة الاقتصادية، التي شملت مراكز حضارية مختلفة، كبلاد ما بين النهرين وأواسط آسيا وعمان وبلاد وادي السند وويلام وسوريا والأناضول. ويظهر ذلك جلياً من وجود الكم المتنوع من البضائع، التي عثر على آثارها بمستوطنة سار.

وتطرح الباحثة، في نهاية البحث، مجموعة تساؤلات، مؤكدة أنه ما زلنا بحاجة للمزيد من التحليل والدراسة، لكثير من اللقى الأثرية، وأن دراسة متأنية للعظام البشرية، التي اكتُشفت من المدافن التلية، لا شك سوف تضيف إلى معلوماتنا الكثير، خاصة فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية اليومية لمجتمع دلون.

وينفرد الباب الأخير بعرض سجل مجموعة الأختام الدائرية (الدلمونية)، التي كشف عنها موقع سار، التي يبلغ عددها ٩٥ ختماً، أغلبها مصنوع من الحجر الصابوني. والجدول الوصفي لهذه الأختام الذي يشتمل على معلومات مفصلة قدر الإمكان، توضح رقم التسجيل مع تحديد نوعه حسب التصنيف المعتمد، من قبل الباحثة، مع تحديد المكان ووصف للمشاهد، الذي يحتويه كل ختم، تليه دراسة وعرض مماثل لمجموعة الطبعات الطينية، التي بلغت ٢٢٣ طبعة ختم.

تعد هذه الدراسة من الأبحاث القيّمة، التي تجمع بين العرض والتحليل لمجموعة متجانسة، من حيث المكان والزمان. ولكن ما يزال هناك العديد من الأسئلة، التي لم يُجاب عليها بعد، في انتظار ما سوف تكشف عنه معاول الآثاريين في مجال البحث، عن حضارة دلون.

تلك الحاويات. وتتحدث الباحثة، بإيجاز، عن الموضوعات المختلفة، التي وردت، أو نُقشت على طبعات الأختام، كما تفسر أهم أشكالها ورموزها. وتشير للتأثيرات الخارجية على هذه الرموز والأشكال، ثم تتطرق للأماكن والمواقع، التي عُثر فيها على تلك الطبعات.

أما القسم السادس، فيلقي الضوء على التصنيف الزمني والمكاني، لمجموعة الأختام والطبعات قيد البحث. وكما ذكرنا بأن موقع سار من المواقع ذات الطبقة التاريخية الواحدة، التي تتوافق زمنياً مع الطبقة المدينة الثانية (ب)، بموقع قلعة البحرين، وأن ٧٥٪ من الأختام التي عُثر عليها، تنتمي للمرحلة الثالثة في الموقع. وترجّح كيرفورد أن اختلاف عدد الأختام بنسب كبيرة، أحياناً، من مكان لآخر، سواءً في الوحدات السكنية، أو في المعبد، يُعزى إلى التفاوت في النشاط الاقتصادي. أما ظاهرة العثور على عدد عشرة أختام في منزل واحد، كما هو الحال في المنزل رقم ٥٢، فيطرح تساؤلاً عن عدد الأختام الذي تملكه الأسرة الواحدة؟ وهل كان ممكناً أن يمتلك الفرد أكثر من ختم؟.

وفي القسم السابع، خاتمة الكتاب، تذكر الباحثة أهم الاستنتاجات من دراسة هذه المجموعة من الأختام وطبعاتها، مؤكدة على أن دلون بدأت الاستغلال بختمها المتميز، خلال نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني، واستمر ذلك معها أكثر من خمسمائة سنة. وأن ما أطلقت عليه الباحثة "الأختام الخليجية المبكرة" لم يحظ بالعدد الوافر في سار، كما أن التنوع في أشكال الأختام من موقع سار، يفرض وجود ورش مختلفة. أما موضوعات الأختام فلم تكن مقتصرة على الجوانب الخاصة بالأساطير، أو العقائد الدينية فحسب، بل تناولت الحياة اليومية ونشاطاتها، التي كانت لها انعكاساتها في مشاهد الأختام.

ومن جانب آخر، فإن نتائج الدراسة توضح أن هناك علاقة بين المواد، التي عثر عليها في سار، وبين شمال سوريا وأشور، على وجه التحديد. وهناك ما يبرهن على هذه العلاقة، من وجود نصوص مسمارية، تتحدث عن علاقات تجارية ودبلوماسية، حدثت بين دلون وماري في سوريا. كما أن هناك اتصالات بين دلون، من جهة، ومنطقة أواسط آسيا والأناضول ووادي السند. وتضع الدراسة، التي أجريت لمجموعة الأختام